كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

النقد القديم /المرحلة الثالثة

د. جبار عبد ضاحي

المحاضرة السادسة

النقد في مجالس الفقهاء والعلماء والأشراف:

Criticism in councils of jurists and scholars

بقيت الحجاز مؤلا للعلم والدين ولا سيما بعد ان استقرت الخلافة الاموية في الشام وكانت معارضتها في العراق اذ احتفظت الحجاز بكونها المركز الديني لملتقى الحجيج وبذلك كانت نقطة التقاء الخلفاء والولاة والامراء والعامة والشعراء والاشراف فكانت المجالس الادبية التي تفصح عن ادب رفيع وفن راق يعرض من اخبار الرسول واخبار العرب وايامهم وتاريخ الاولين ومجالات العلم والحرب والفنون في دقة وذوق رفيع وقد اخذ النقد الادبي يشق طريقه في بيئة الحجاز نحو افاق جديدة بلورت الخط الصحيح الذي سار عليه النقاد فيما بعد وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال(اذ قرأتم شيئا في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في اشعار العرب فان الشعر ديوان العرب) وهذا يدل على معرفة تامة باهمية الشعر واثره فابن عباس كان اذا سئل عن مسالة فقهية انشد شعرا شاهدا على كلامه وتفسيره يدلنا على ذلك مئتا مسالة عن نافع ابن الازرق لابن عباس اوردها السيوطي في الاتقان مع جواب ابن عباس عليها بالشعر مفسرا غريب كل اية ببيت شعري، قال نافع اخبرني بقوله تعالى: عن اليمين وعن الشمال عزين) قال ابن عباس العزون حلق الرقاق، قال نافع وهل تعرف العرب ذلك، قال ابن العباس نعم اما سمعت عبيد ابن الابرص يقول:

فجاءوا يهرعون اليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

وتمضي اسئلة نافع بن الازرق واجوبة ابن عباس على هذا المنوال ، السؤال عن معنى كلمة والاجابة بمعنى مرادف لها وهو معنى اقرب الى الافهام ويصدق هذا الاستعمال من خلال معرفة بالشعر العربي فحينما سال نافع ابن الازرق ابن عباس بقوله اخبرني عن قوله تعالى: وابا قال الاب ما يعتلف من الدواب اما سمعت قول الشاعر: ترى بها الاب واليقطين مختلطا على الشريعة تجري تحتها الغرب

يبدو ان ابن عباس قد اعتمد خبرته اللغوية والبيانية والنقدية في استنباطه المعنى ويدعم هذه الخبرة وعي يتمثل في تجربته ومعرفته باسباب النزول وايام العرب وهكذا كان يتكا على الموروث الشعري ولا ريب في ان ابا بكر قد سؤل عن هذه الاية وفاكهة وابا فقال اي سماء تظلني واي ارض تقلني، ان انا قلت في كتاب الله ما لا اعلم ، اما عمر فقال عن الاية نفسها كل هذه الفاكهة قد عرفناه فما الاب ثم رجع الى نفسه فقال ان هذا له و التكلف يا عمر غير ان ابن عباس اعتمد في تفسيره على الموروث

الشعري كما ذكرناه. ويرى الدكتور محمد سلام زغلول انها قد بدات بمحاولات ابن عباس مدرسة جديدة عن اسلوب القران ومعانيه بمقارنته بالادب العربي شعره ونثره وبذلك مهد لكثير من العلماء اللغويين من بعده لك يتصدوا لاسلوب القران فيشرحوا غريبه بالشعر والمثل والكلام الفصيح ويرى انه مهد هذا القيام حركة واسعة لجمع اللغة والشعر من مضارب الخيام وبوادي العرب رافق هذا حركة كبرى كانت سببا رئيسا في حفظ العربية من الضياع وتنقيتها ايضا من الدخيل فضلا عن محافظتها على القران فظل متدارسا مفهوما من غير بلادة التي نزل بلسان اهلها وكان يقول ابن عباس (اذا تعاجم شيء من القران فانظروا في الشعر فان الشعر عربي).

النقد الفني:

يقتضي الانصاف ان نشير الى ان اهتمام الرواة وعلماء الشعر تدوينا وتوثيقا ولغة لم يصرفهم عن الاهتمام بالجوانب الفنية له ومن ذلك انهم لاحظوا اجادة لذي الرمة في التشبيه فقال حماد (ان ذي الرمة احسن للاسلاميين تشبيها) ولاحظ الاصمعي الشيء عينه عند امرئ القيس والنابغة من الجاهليين وذي الرمة من الاسلاميين وكان معيار الاصالة والابداع والجدة نصب اعينهم وهم يفاضلون بين شاعر واخر سواء اكان ذلك بددقة الوصف او اصابته تو بحسن التشبيه او جدة المعنى او جودة المطلع وعلى هذا اتفق معظمهم على ان امرئ القيس اول من بكى واستبكى وقيد الاوابد ولاحظ الاصمعي ان النابغة لا يحسن صفة الخيل ومثله زهير بن ابي سلمى في حين ان طفيل الغنوي (غاية في النعت وهو فحل) ولذلك رفظوا التقليد فهو لا يدل على اصالة وقد عيب على ذي الرمة انه اذا اخذ في النسيب ونعت فهو مثل جرير وليس وراء ذلك شيء. وهم في كل هذا يضعون معايير سليمة للنقد فالاصالة والابداع معياران لا يختلف عليهما اثنان ومثلمهما دقة الوصف وجودة المطلع الذي ينبغي ان يكون مؤثرا لان اول ما يطرق للسمع ومناسب للغرض ومتين الصياغة وفي ضوء هذه المعايير كانوا يضعون الشعراء في مراتبهم التي يستحقونها فالاصمعي مثلا عندما جعل الفحولة معيارا تقاس به شاعرية الشاعر كان في حسبانه ان يكون متنوع الاغراض (قال في كل عروض وركب على قافية) وان يكون كثير الشعر جيده لان كثرة الشعر دلالة الخصوبة والقوة وقد ارتضى بعده ابن سلام هذه المعايير لتوزيع الشعراء على طبقات وقد حاول العلماء ان يضعوا النقد على اسس وقواعد وهذا هو اول الطريق نحو المنهجية التي ينبغي ان ياخذ بها الناقد نفسه .لقدروضعوا اللبنات الاولى لقواعد نقد الشعر يتمثل هذا في تحديد الاغراض وبيان خصائصها العامة وبوضع المعايير السليمة لتمييز شاعر من اخر وبدراسة الشعر معنى ومبنى والقصيدة مطلع وحسن تخلص وبعملهم هذا قدموا الكثير من المصطلحات النقدية التي وجدت طريقها الى الدرس النقدي لاحقا مثل مصطلح (الفحولة)،وبعض مصطلحات السرقة مثل (الاستحقاق) (والاجتلاب) (والانتحال) (والاغارة) (والغصب) ولم تكن دلالة هذه المصطلحات بالطبع على نحو ما ينبغي ان يكون عليه المصطلح .لقد مارس علماء القرن الثاني للهجري النقد اللغوي والنقد النصي والنقد الشعري وقد افادت ارائهم النقد الادبي كثيرا.

السرقات الشعرية:

يرى الدكتور إحسان عباس أن الدافع الأول لنشوء هذه القضية هو اتصال النقد بالثقافة ومحاولة الناقد أن يثبت كفايته في ميدان الإطلاع ،أي ان من أسباب نشأة هذه القضية:

1-الترف الفكري الذي وصل إليه العلماء العرب

2-إظهار النقاد لإمكاناتهم في معرفة الشعر العربي من خلال الوقوف على السرقات.

وقد تناول الاصمعي هذا المعيار حين وازن بين شاعر وآخر،ودقق في اتفاق المعاني بينهما كما تناوله حين سعى الى البحث في نشأة المعاني وفي تطورها على أيدي الشعراء ومن إشارته الى بعض المعاني المتشابهة وذلك حين سأل استاذه ابا عمر قائلا له: خبرني عن هولاء الشعراء سرق بعظهم بعضا،قال مثل ماذا: قلت:مثل قول امرئ القيس:

له أذنان تعرف العتق منهما كسامعتي مذعورة ام ربرب

وقول طرفة:

لع أذنان تعرف العتق منهما كسامعتي مذعورة ام فرقد

فقال لي"لا تلك عقول رجال توافت،فالابداع المسروق عنده يزهو بمعرضه الجديد،ويتباين به السارقون حذقا ومهارة لذا" عد الاقدمون السرقات ضربا من الفنية الادبية،أي انها مجال الحذق والمهارة ولا يستطيعها كل أديب وإنما الذي يقتدر عليها هو الحاذق المبرز الذي يستطيع ان يقطع صلة ما سرق بأصله وبصاحبه بحيث يبدو أمام القارئ شيئا جديدا بعيد الصلة عن أصله القديم.

فضلا عن هذا أشار الاصمعي الى السرقة بقوله: سمعت ابا عمر بن العلاء يقول: لقيت الفرزدق في المربد فقلت: يا ابا فراس أحدثت شيئا ؟ قال: خذ:ثم أنشدني:

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

قال:فقلت سبحان الله،هذا للمتلمس.فقال:أكتمها فلضو الَّ الشعر أحب إلي من ضوال الإبل.

فالاصمعي يرى ان هناك شعرا مخترعا لم يسبق إليه قائله ،والى جانب ذلك يرى شعراء يولدون شعرهم من غيرهم،وكل فن من الفنون يرتقي عبر تأريخه بما يضيفه كل فنان الى فن من سبقه،ويبقى أمر التجويد والابداع نسبيا، حتى يتهيأ لهذا الفن الفنان المبدع الذي يرتقي به اقصى غاية الابداع.

وليس من شك في ان الشاعر لا يكون مبدعا في شعره جميعا،بمعنى ان يأتي شعره كله من الجدة والخلق والابتكار بحيث يعجب السامعين ويبهرهم ،بل قد لا تكون القصيدة الواحدة على قدر واحد من الجدة والابداع ومن الطبيعي ان تدخل شعر الشاعر صور كثيرة من المعاني والتشبيهات التي سبقه اليها الشعراء المتقدمون عليه،لان الشاعر إذ ينظم فانه يستعمل اللغة استعمالا شعريا يتمثل به محفوظة الشعري الكبير الذي درج عليه من الصغر ويبقى على الشاعر ان يجود ويبدع فيما ينظم حتى يأتي شعره فريدا معجبا.

وخلاصة ذلك نرى أن الخصومة بين الشعراء كانت سببا مهما في كثير من تهم السرقة وما يتصل بها كالغصب والنحل والانتحال ورمى الشعراء بعضهم بعضا بهذه التهم ،انما هو جزء من اسلحة الخصومة في ميدان الهجاء ولكن ما زاد في المعضلة تعقيدا والمعركة ضراوة هو تعصب انصار كل شاعر لصاحبهم واختلاق الاقاويل والتهم ،للحط من الشاعر الخصم والنيل من شاعريته.

قضية المفاضلة بين الشعراء:

نرى أن المفاضلة بين الشعراء اخذت منحى التطور في هذا العصر عنه في العصرين السابقين وذلك بالالتفات عند الموازنة او المفاضلة الى جوانب من الشعر لم يكن النقاد السابقون ينظرون اليها ولا ريب في أن تكون المجالس الادبية معنية بهذا الشأن فقد عني الخلفاء والعلماء والشعراء بجملة مما عنوا به بالمفاضلة بين الشعراء ولم يكن الموضوع حصرا لمعاصريهم فقد ياخذهم الحديث الى المفاضلة بين شعراء ما قبل الاسلام او الاسلاميين وقد يصل الامر الى شاعر من المعاصريين واخر من السابقين باحثين عن نقاط التشابه او التفاوت راسمين الخصائص العامة لذلك .وتعد المفاضلة بين الشعراء مظهرا(من مظاهر الحركة النقدية في اي ادب وقد نالت هذه الظاهرة نصيبا مهما لدى نقاد العصر الاموي الذين اعتادوا على اسلوب المفاضلة او الموازنة منطلقين من مواقف كثيرة ومعايير نقدية للمفاضلة).وروي الاصمعي قال للفرزدق (من اشعر الناس في الاسلام؟ قال كفاك يبن النصرانية اذا مدح اشار الى الاخطل والفرزدق وحدد تفضيله الاخطل على الشعراء في العصر الاسلامي في فن المديح فقط. ويرمي من ذلك الى ارضاء الخليفة عبد الملك الذي لا ريب في انه شاعره المفضل.

ولم يكتفي ذلك العصر عن المفاضلة عند الشعراء والخلفاء والشعراء بل تعدى الى حوارات كثيرة بين الخلفاء والولاة انفسهم.ومما يروي عن سليمان بن عبد الملك انه سأل عمر بن عبد العزيز أجرير اشعر ام الاخطل؟ فاجابه ان يعفوه ولم يعفو سليمان فقال(ان الاخطل ضيق عليه كفرة القول، وان جريرا وسع عليه اسلامه) قوله وقد بلغ الاخطل منه حيث رايت فقال سليمان فضلت والله الاخطل .

ومن الاراء النقدية والمحاكاة ما ذكر عن عبد الملك وحبه للشعر لا سيما المديح منه فضلا عن إمتلاكه حاسة نقدية اعانته على بث اراءه في الشعر .ومن ذلك ما انشده ذو الرمة قواه:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كانه من كلى مضرية سرب

وكانت حينها عينا عبد الملك تسيلان الماء فغضب عليه ونحاه.فقيل له ويحك انما دهاك عنده قول ما بال عينيك فاقلب كلامك فصبر فانشده ثانية :

ما بال عينيك... حتى اتى الى اخرها ، فاجازه واكرمه مع ان القصيدة قد قيلت قبل الانشاد الا ان الحس الفني والادراك الذوقي وخروج الشاعر على مراعاة المقام منع عبد الملك من قبولها فغضب. ويروي ان عبد الملك عاب مطلع قصيدة الاخطل التي مدحه فيها وتطير منها:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وازعجتهم نوى في صرفها غير

فقال عبد الملك بل منك إن شاءالله تطير، فعاد الاخطل وقال:

خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا وازعجتهم نوى في صرفها غير

فعبد الملك لم يلتفت في هذين النموذجين أو غيرهما الا الى ضمير الخطاب(كاف) الذي ملأ قلبه طيرة وهذا هو الذي دفع الشعراء الى تعديل ذلك وإصلاحه.